أدبيات الفقهاء المغاربة في عصر الموحدين

أ.عبد الجليل منصوري
جامعة عمار ثليجي بالأغواط ـ الجزائر

توطئة

إن الناظر في أدب الفقهاء قد يتبادر إلى ذهنه أول وهلة أنه إنما ينظر في أدب لا يرقى إلى مصاف الإبداع الحقيقي، لأن أهله قد اشتغلوا بما يلهي قرائحهم عن استحضار كل ما من شأنه أن يوصف بالجمال أو الإدهاش، إذ كان ما اشتغلوا به مانعا لهم عن الإجادة فيما سواه.

ولعلي أقف على ما رواه ابن خلدون[1] عن أبي العباس بن شعيب وكان بصيرا باللسان العربي أنه أنشد شعرا قال فيه صاحبه:

لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال على البديهة: هذا شعر فقيه، لقول الشاعر: ما الفرق؟

ومن الوقوف على هذه الرواية يظهر أن الأدباء كانوا يستضعفون شعر الفقهاء لغلبة ألفاظ فنهم عليه، وكذلك " ألفاظ أصحاب كل حرفة تغلب على أشعارهم"[2]

فالشأن إذن ليس في ألفاظ الشاعر، ومن أين يستدعيها؟ أمن حرفته؟ أم من شعوره؟ وإنما الشأن في شاعرية ما ينتجه.

ولو كانت ألفاظ الفقهاء تزري بالشعر والأدب وتضع من شأنهما لكانت كذلك تصنع مع الأدباء إذا هم وظفوها في أشعارهم، ولقد استعملوها كثيرا جدا ودواوينهم خير شاهد على

ذلك، كديوان المتنبي، والبحتري، وأبي تمام، ولا يمكن أن تجد ناقدا واحدا يقدح في شاعرية أحد هؤلاء الثلاثة لأنه مال إلى ألفاظ الفقهاء وجعل شيئا منها في شعره.

كما لا يمكن للناقد المنصف أن يصدر أحكاما على جماعة عريضة وعلى أدبها بمجرد النظر إلى ألفاظ حرفتها وصنعتها، تلك الأحكام قد تسهم إلى حد ما في إلغاء تلك الجماعة وإلغاء أدبها الذي قد يفوق أدب الأدباء أنفسهم.

نبذة عن أدب الفقهاء قبل عصر الموحدين

قامت دولة الموحدين قيامها الفعلي بعد مبايعة رجالها لعبد المؤمن بن علي الكومي سنة ست وعشرين وخمسمائة للهجرة[3]، ثم تأسست سنة إحدى وأربعين وخمسمائة للهجرة، واستمرت تحكم المغرب والأندلس إلى آخر حكامها أبي دبوس الواثق بالله سنة ثمان وستين وستمائة للهجرة[4].

وسأذكر الآن فقيهين اثنين عاشا قبل قيام هذه الدولة، أحدهما من المشارقة المتقدمين، وثانيهما من المغاربة المتأخرين.

عروة بن أذينة الليثي المدني (130 هـ)

قال عنه صاحب فوات الوفيات: " ... الشاعر الحجازي المشهور، سمع ابن عمر، وروى عنه مالك في الموطأ، وكان من فحول الشعراء."[5]

وفيما ذكره المترجم شهادتان: إحداهما على علو كعبه في الفقه والرواية إذ روى عن ابن عمر رضي الله عنهما، وروى عنه إمام دار الهجرة رحمه الله، وثانيتهما على شاعريته ورقة حاشيته وفحولته، وشعره شاهد على ذلك، ومنه قوله:

إن التـــي زعمـــت فـــؤادك ملهـــا ... خلقت هـواك كمـا خلقـت هـوى لهـا
فبـك الـذي زعمـت بهـا وكلاكمـا ... يبـــدي لصـــاحبه الصـــبابة كلهـــا
ويبيـت بـين جـوانحي حـب لهـا ... لـو كـان تحـت فراشـها لأقلهـا
ولعمرهـا لـو كـان حبـك فوقهـا ... يومـا وقـد ضـحيت اذن لأظلهـا
وإذا وجـدت لهـا وسـاوس سـلوة ... شـفع الضـمير إلـى الفـؤاد فسـلها
بيضـاء باكرهـا النعـيم فصـاغها ... بلباقـــة فأدقهـــا وأجلهـــا
منعـت تحيتهـا فقلـت لصـاحبي ... ماكـان أكثرهـا لنـا وأقلهـا
فـدنا فقـال :لعلهـا معـذورة ... مـن أجـل رقبتهـا! فقلـت لعلهـا[6]

فهذه القطعة الشعرية لا يخفى جمالها، فهي تنضح رقة وعذوبة، ولو أنها اتفقت لشاعر صنعته الشعر فقط لفرح بها ولعدها من مناقبه.

كما لا يمكن لأحد من النقاد الطعن في شاعريتها لأنها صدرت عن فقيه راوية لحديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن شعره العذب كذلك ما رواه ابن عبد ربه في العقد:

إذا وجـــدت أوار الحـــب فـــي كبـــدي	غـــدوت نحـــو ســـقاء المـــاء أبتـــرد
هبنـــي بـــردت ببـــرد المـــاء ظـــاهره	فمـــن لنـــار علـــى الأحشـــاء تتقـــد[7]

وقد علق عليها بما يدل على إعجابه الشديد بها وبصاحبها.

علي الحصري القيرواني (488)

فقيه ومقرئ مغاربي كانت حياته كذلك قبل قيام دولة الموحدين، لم يمنعه اشتغاله بالفقه أن يبدع أدبا راقيا جدا يصنفه في الشعراء كما قد صنفه فقهه في الفقهاء المقدمين، وله قصيدة سارت مسير الشمس في الآفاق، يكاد لا يخلو صدر دارس للأدب من بيت من أبياتها لرقتها وعذوبتها، ومازال الشعراء قديما وحديثا يعارضونها وينسجون على منوالها، وأذكر منها:

يـــا ليـــلَ الصَّـــبِّ متـــى غَـــدُهُ	أقِيـــامُ السَّـــاعَةِ مَوْعِـــدُهُ
رَقَـــدَ السُّـــمَّارُ فَأرَّقَـــهُ	أَسَـــفٌ للبَـــيْنِ يُـــرَدِّدُهُ
فَبَكَـــاهُ الـــنَّجْمُ ورَقَّ لَـــهُ	مِمَّـــا يَرْعـــاهُ ويَرصُـــدُهُ
كَلِـــفٌ بِغَـــزالٍ ذي هَيَـــفٍ	خَـــوْفُ الواشِـــينَ يُشَـــرِّدُهُ
نَصَـــبَتْ عَينـــايَ لَـــهُ شَـــرَكاً	فـــي النَّـــومِ فَعَـــزَّ تَصَـــيُّدُهُ
وكَفَـــى عَجَبـــاً أنّـــي قَـــنَصٌ	للسِّـــرْبِ سَـــبَاني أَغْيَـــدُهُ
صـــنَمٌ للفِتْنَـــةِ مُنْتَصِـــبٌ	أَهْـــواهُ ولا أَتَعَـــبَّدُهُ
صـــاحٍ، والخَمْـــرُ جَنـــى فَمِـــهِ	سَـــكْرانُ اللَّحْـــظِ مُعَرْبِـــدُهُ
يَنْضـــو مِـــن مُقْلَتِـــهِ سَيـــفاً	وكَـــأنَّ نُعاســـاً يُغْمِـــدُهُ
فَيُرِيـــقُ دَمَ العُشَّـــاقِ بِـــهِ	والوَيْـــلُ لمَـــنْ يَتَقَـــلَّدُهُ
كَـــلاَّ، لا ذَنْـــبَ لمَـــنْ قَتَلَـــتْ	عَيْنـــاهُ ولَـــم تَقْتُـــلْ يَـــدُهُ
يـــا مَـــنْ جَـــحَدَتْ عَيْنـــاهُ دَمـــي	وعلـــى خَدَّيْـــهِ تَـــوَرُّدُهُ
خَـــدّاكَ قَـــدِ اعْتَرَفـــا بِـــدَمي	فَعَـــلامَ جُفونُـــكَ تَجْحَـــدُهُ
إنّـــي لأُعيـــذُكَ مِـــن قَتْلـــي	وأَظُنُّـــكَ لا تَتَعَمَّـــدُهُ
بـــاللهِ هَـــبِ المُشْـــتاقَ كَـــرَىً	فَلَعَـــلَّ خَيالَـــكَ يُسْـــعِدُهُ
مـــا ضَـــرَّكَ لَـــو داوَيْـــتَ ضَـــنَى	صَـــبٍّ يَهْـــواكَ وتُبْعِـــدُهُ
لَـــم يُـــبْقِ هَـــواكَ لَـــهُ رَمَقـــاً	فَلْيَبْـــكِ عليـــهِ عُـــوَّدُهُ

وغَـداً يَقْضـي أو بَعْـدَ غَـدٍ	هـلْ مِـن نَظَـرٍ يَتـزَوَّدُهُ
يـا أَهْـلَ الشَّـرْقِ لنـا شَـرَقٌ	بالـدّمع يَفـيضُ مُـوَرَّدُهُ
يَهْـوى المُشْتـاقُ لِقـاءَكُمُ	وصُـروفُ الـدَّهْرِ تُبَعِّـدُهُ
مـا أَحْلـى الوَصْـلَ وأَعْذَبَـهُ	لـولا الأيّـامُ تُنَكِّـدُهُ
بـالبَيْنِ وبالهُجْـرانِ، فيـا	لِفُـؤادي كيـفَ تَجَلُّـدُهُ[8]

وهي قطعة بديعة تنساب في النفس انسيابا عجيبا، لا يمكن القول إنها شعر فقيه بغرض ازدرائها والوضع منها ولولا طولها لأوردتها هنا كاملة، وإنما ذكرت هذين العلمين للإشارة إلى أن الفقهاء مذ كانوا وهم أدباء، ولا يزال بعض منهم كذلك إلى يوم الناس هذا.

أدب الفقهاء المغاربة في عصر الموحدين

ليس الغرض من هذه الورقات الترجمة لفقهاء المغرب والأندلس في حقبة ما، وإنما الغرض منها الإشارة إلى مواطن الجمال في أدب الفقهاء المغاربة، وبذلك يفند الحكم القائل: شعر فقيه، والمراد به الركاكة والضعف.

ومن الفقهاء الذين ذاع صيتهم واشتهروا في المغرب والمشرق:

القاضي عياض اليحصبي (544 هـ)

قال عنه ابن خلكان : " ... كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب."[9] وله التصانيف الكثيرة والمفيدة، وهذا لم يمنعه أن يشارك في الأدب مشاركة صالحة، ومن بديع شعره:

يا من تحمل عني غير مكترث	لكنه للضني والسقم أوصى بي
تركتني مستهام القلب ذا حرق	أخا هوى وتباريح وأوصاب
أراقب النجم في جنح الدجى سهرا	كأنني راصد للنجم أو صابي
وما وجدت لذيذ النوم بعدكم	إلا جنى حنظل في الطعم أو صاب[10]

ونلاحظ في هذه الأبيات رقة الشاعر ونفثة المصدور، كما نلاحظ اهتمامه بالصنعة اللفظية كما كان أبو تمام يصنع تماما مع بديع شعره، فبنى هذه القطعة الشعرية على الجناس التام

الذي يلفت انتباه السامع، كما يضيف لموسيقى موسيقى اللفظ فيجعل السامع في إيقاعات متعددة لا يدري كيف يخلص منها.

وله قطعة أخرى صنع فيها كما صنع بالتي ذكرت آنفا وهي قوله:

الله يعلــم أنــي منــذ لــم أركــم   كطــائر خانــه ريــش الجنــاحين
فلــو قــدرت ركبــت البحــر نحــوكمُ   فــإن بعــدكمُ عنــي جنــى حينــي[11]

ومن بديع شعره كذلك قوله يصف خامات زرع بينها شقائق النعمان هبت عليه ريح، فراحت شقائق النعمان تظهر من خلاله:

انظــــر إلـــــى الـــــزرع وخاماتـــــه   تحكــي وقــد ماســت أمــام الريــاح
كتيبــــــة خضــــــراء مهزومـــــــة   شــقائق النعمـــان فيهـــا جـــراح[12]

وفي وصف هذا الفقيه للصورة الطبيعية الماثلة أمامه تذكير بوصف الشعراء الفحول، كوصف المتنبي لشعب بوان، بل أقول إن الصورة عند فقيهنا هذا أجمل لأنه يصف لحظة يسيرة قد يرتبك بسبب قصرها الإحساس فلا يطاوع صاحبه.

أبو بكر ابن العربي المعافري (543 هـ)

" هو الإمام العالم القاضي الشهير فخر العرب أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي."[13]، هذا الفقيه الذي عاش حتى قامت دولة الموحدين وتوفي في فاس بين أكنافها لم يمنعه فقهه من إبداع ما لا يصدر إلا عن شاعر فحل وأديب مجيد، ومن ذلك ما قاله على البديهة لما داعبه أحد الأمراء بالرمح:

يهــز علـــي الـــرمح ظبـــي مهفهـــف   لعـــوب بألبـــاب البريـــة عابـــث
ولـــو كـــان رمحـــا واحـــدا لاتقيتـــه   ولكنـــه رمـــح وثـــان وثالـــث[14]

سرعة بديهة وحضور ذهن وتوقد حس وشدة عارضة، كما أن بيته الثاني قد سار في الناس مسير الأمثال.

وقال أيضا يصف غلاما قد لبس ثيابا لا تليق به:

لبس الصوف لكي أنكره   وأتانا شاجيا قد عبسا
قلت إيه قد عرفناك وذا   جل سوء لا يشين الفرسا
كل شيء أنت فيه حسن   لا يبالي حسن ما لبسا[15]

ومن بديع نظمه ولطيف عبارته قوله:

أتتني تؤنبني بالبكا   فأهلا بها وبتأنيبها
تقول وفي قولها حشمة   أتبكي بعين تراني بها؟
فقلت إذا استحسنت غيركم   أمرت الدموع بتأديبها[16]

أبو الخطاب ابن دحية الكلبي (633 هـ)

من فقهاء دولة الموحدين ومن رواة الحديث النبوي فيها، كان عالما فاضلا مطلعا على العربية متذوقا للشعر العربي، ذكره محمد المنوني من جملة المفسرين المغاربة في كتابه: حضارة الموحدين[17]

ويشهد له بأدبيته الفائقة سفره الرائع: المطرب في أشعار أهل المغرب، وقد جوّد فيه إلى حد بعيد لا يمكن معه الوقوف على شيء منه وترك شيء آخر، إذ لو أراد المتحدث عن براعته فيه الاستشهاد لجماله لأتى على نصف الكتاب.

ومما ينسب إليه من الشعر قصيدة بقي مطلعها فقط وهو قوله:

لولا الوشاة وهمُ   أعداؤنا ما وهموا[18]

ابن زرقون (586 هـ)

فقيه مغاربي آخر، ذكره محمد المنوني في جملة الفقهاء المالكية[19]، ومن جميل شعره قطعة نقلها عنه أبو الخطاب الكلبي، وهي قوله:

ذكر العهد والديار غريب   فجرى دمعه ولج النحيب
إذ صفاء الوداد غير مشوب   بتجن، وودنا مشبوب
وإذ الدهر دهرنا وإذ الدا   ر قريب وإذ يقول الرقيب
وقيان الأوتار تسدها الأط   يار والروض زاهر مهضوب
ووشاحي معاصم لوت الشو   ق علينا وظاهرتها القلوب

وفراشـــي بطـــن وصـــدر ونهـــد وعليهـــا منـــي رفيـــق طبيـــب
واللمـا والرضــاب كأسـي وخمـري حبــذا الكــأس حبــذا المشــروب
وحمـــى الأزر لـــي مبـــاح وحكمـــي نافـــذ فيـــه والفعـــال ضـــروب
وإذا مـــا الحمـــى أغـــار عليـــه حـــاذق الطعـــن فـــالحمى منهـــوب
أســـأل الله عفـــوه فلـــئن ســـا ء مقـــالي لقـــد تعـــف الغيـــوب
قـــد ينـــال الفتـــى الصـــغائر طرفـــا لا ســـواها وللـــذنوب ذنـــوب
وأخـــو الشـــعر لا جنـــاح عليـــه وســـواء صـــدوقه والكـــذوب[20]

قطعة تسيل عذوبة ورقة، يظن قارئها أنها لعمر بن أبي ربيعة أو لمن شاكله امن شعراء الغزل المطبوعين، أظهر في أولها فقيهنا كل ما يكون من شاعر غزل، ثم عاد في آخرها واعتذر لنفسه بالذي يكون في الشعر من كذب.

وقال يخاطب امرأة:

يـا نـور نفسـي حـق الضـيف مفتـرض وأنت من قوم صدق ظـاهري الكـرم
مـــرت ليـــال علينـــا فـــي جـــواركم ونحـن فـي جفـوة أفضـت إلـى سـقم
إن قلــت تبــت، فمــا كانــت مفاحشــة وأيـــن منـــك مقـــال الله فـــي اللمـــم
أو كـان نسـك فمـا ذو النسـك فـي سـعة أن يســتحل وقــاك الله ســفك دمــي[21]

وهذه قطعة أخرى شاهدة على شاعرية هذا الفقيه وغزله العفيف الطاهر، ولا يمكن لمن قرأها أن يقدح في جمالها وتمكن صاحبها من ناصية الشعر والأدب.

الخاتمة

لا يمكن في هذه الورقات اليسيرة الوقوف على كل الفقهاء الأدباء لدولة الموحدين، إذ عددهم لا يحصر لكثرتهم من جهة، ولندرة الكتب التي تترجم لفقهاء المغرب خاصة دون غيرهم من جهة أخرى.

إلا أن المستفاد من خلال هذا العرض اليسير أن للفقهاء أدبا يضاهون فيه فحول الشعراء، إذ هم يطرقون جميع أغراض الشعر، لا كما يتوهم بعض الدارسين أنهم لا يتجاوزون

عتبات النصح والإرشاد، أو نظم العلوم والفنون في منظومات تيسر للطلاب الحفظ والاستحضار.

ومما يستفاد كذلك أن الفقهاء يطرقون كل فنون الشعر حتى الغزل، بل يجيدون فيه أي إجادة، حتى يظن القارئ أن الشعر لغير فقيه لما اعتاد الناس من وقارهم لا لضعف نسجهم وعدم قدرتهم على الإتيان بمثله.

وكذلك بعد الفقهاء عن توظيف مصطلحات فنهم أثناء ممارستهم للأدب وأثناء الإفصاح عن مشاعرهم، فهم واعون تماما للمقامات التي هم يتقمصونها مرة بعد مرة، ففي مجالس الدرس لا يبدو منهم ما يشوه وقار المجلس، وفي مجالس الأنس والتبسط مع الرفاق والأصحاب والأهل يميلون إلى ما تميل إليه النفس وتطلبه ليروحوا عنها.

ومما يستفاد كذلك احتفال بلاد المغرب والأندلس ـزمن الموحدين ـ بالفقهاء الأدباء، فهم فقهاء مالكية أو ظاهرية قد أثروا المكتبة الفقهية بما دونوا في هذا الفن، وهم أدباء بأشعارهم ورسائلهم التي شاركوا بها فكانت خير إضافة لمـــوروثنا الأدبي.

وبهذا ندرك أن للفقهاء أدبا لا يمكن ازدراؤه ولا احتقاره، إذ قد بلغ الذروة في الجمال، ولعل السبب راجع إلى كونهم يفتحون عيونهم على أعظم كلام فصاحة وبلاغة ونظما، وأعني بذلك كلام الله عز وجل ثم كلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، فيحصلون بهما مادة لغوية وأدبية لا تتفق لغيرهم، ثم يضيفون عليها رواية الأشعار وأخبار العرب... فتتهيأ عندهم الملكة للولوج في أي أمر يريدون لها الولوج فيه.

المصادر والمراجع

ـ إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط4، 1983، دار الثقافة، بيروت، لبنان.

ـ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، د تح، ط1، 2011، دار ابن حزم، ليروت، لبنان.

ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح إحسان عباس، ط1، 1994، دار صادر، بيروت، لبنان.

ـ الذهبي شمس الدين، تاريخ الإسلام، تح بشار عواد معروف، ط 1، 2003، دار المغرب الإسلامي.

ـ السلاوي شهاب الدين، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح جعفر الناصري ومحمد الناصري، د ط، د ت، دار الكتاب، الدار البضاء، المغرب.

ـ الصلابي علي محمد محمد، دولة الموحدين، د ط، د ت، دار البيارق، عمان الأردن.

ـ العاملي بهاء الدين، الكشكول، تح محمد عبد الكريم التمري، ط1، 1998، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ـ ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تح أحمد أمين وآخران، د ط، د ت، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

ـ عروة بن أذينة، شعر عروة بن أذينة، جمعه يحي الجبوري، ط2، 1981، دار القلم، الكويت، الكويت.

ـ الكتبي ابن شاكر، فوات الوفيات، تح إحسان عباس، ط1، 1974، دار صادر، بيروت، لبنان.

ـ الكلبي أبو الخطاب ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، تح إبراهيم الأبيار، وآخران، د ط، 1955 دار العلم، بيروت، لبنان.

ـ المقري شهاب الدين التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، ط 1، 1997، دار صادر، بيروت، لبنان.

ـ المنوني محمد، حضارة الموحدين، د ط، د ت، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب.

الهوامش:

[1] ينظر ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، د تح، ط1، 2011، دار ابن حزم، ليروت، لبنان، 482/1

[2] إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط4، 1983، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 615

[3] ينظر علي محمد محمد الصلابي، دولة الموحدين، د ط، د ت، دار البيارق، عمان الأردن، 98، وشهاب الدين السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح جعفر الناصري ومحمد الناصري، د ط، د ت، دار الكتّاب، الدار البضاء، المغرب، 102/2

[4] ينظر دولة المحدين 234

[5] الكتبي ابن شاكر، فوات الوفيات، تح إحسان عباس، ط1، 1974، دار صادر، بيروت، لبنان، 451/2

[6] شعر عروة بن أذينة، جمعه يحي الجبوري، ط2، 1981، دار القلم، الكويت، 360-364.

[7] ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، تح أحمد أمين وآخران، د ط، د ت، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 274/5

[8] العاملي بهاء الدين، الكشكول، تح محمد عبد الكريم التمري، ط1، 1998، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 211/1، بتصرف.

[9] ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح إحسان عباس، ط1، 1994، دار صادر، بيروت، لبنان، 483/3.

[10] أبو الخطاب ابن دحية الكلبي، المطرب من أشعار أهل المغرب، تح إبراهيم الأبيار، وآخران، د ط، 1955 دار العلم، بيروت، لبنان 87.

[11] المصدر السابق 88

[12] المصدر نفسه 87.

[13] شهاب الدين المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، ط 1، 1997، دار صادر، بيروت، لبنان، 26/2.

[14] المصدر نفسه.

[15] المصدر نفسه.

[16] المصدر نفسه 30/2

[17] محمد المنوني، حضارة الموحدين، د ط، د ت، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 36.

[18] شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام، تح بشار عواد معروف، ط 1، 2003، دار المغرب الإسلامي، 112/14.

[19]ينظر حضارة الموحدين 40.

[20]المطرب 220-221.

[21]المصدر نفسه 221.